جلال الدين أبو الفتح ملكشاه (٤٦٥ – ٤٨٥ هـ – ١٠٧٢ – ١٠٩٢)

خلف والده ألب أرسلان في حكم الدولة السلجوقية ، وسار على سياسته في محاربة النفوذ الفاطمي الشيعي في الشام . واستطاع قائده أتسز أن يستولي على دمشق بعد عدة محاولات سنة ٤٦٨ هـ . ثم عين السلطان ملكشاه أخاه تتش ابن ألب أرسلان ملكا على بلاد الشام ، وجعل حكمها وراثيا في بيته . وبذلك قامت في دمشق دولة سلاجقة الشام التي منعت أي تقدم من جانب الفاطميين في مصر نحو الشام .

ولقد بلغت الدولة السلجوقية في عهد ملكشاه أقصى أتساعها وقوتها ، إذ امتدت حدودها من أفغانستان شرقا إلى آسيا الصغرى غربا وإلى فلسطين جنوبا . ويرجع الفضل في تدبير هذه الدولة في الواقع إلى الوزير أبي الحسن بن علي قوام الدين نظام الملك الطوسي الذي أخلص في خدمة السلاجقة وأبلى في تدبير شئون دولتهم أحسن البلاء . وبعد وفاة ألب أرسلان وطد هذا الوزير الملك لولده ملكشاه دونا عن سائر أبنائه حسب وصيته ، وصار له بمثابة الوالد بدليل أنه اتخذ لأول مرة لقب أتابك ومعناه الوالد الأمير . وظل الأمر بيده طوال عهد السلطان ملكشاه . وقد أورد ابن الأثير وصفا لتلك العلاقة الوثيقة بين السلطان ملكشاه ووزيره نظام الملك حينما خاطبه في بداية حكمه بقوله : « قد رددت الأمور كلها كبيرها وصغيرها إليك ، فأنت الوالد ، وحلف له ، وأقطعه اقطاعا زائدا على ما كان ، من جملته طوس مدينة نظام الملك ، وخلع عليه ، ولقبه ألقابا من جملتها : أتابك ، ومعناه الأمير الوالد ، فظهر من كفايته وعدله وشجاعته وحسن سيرته ما هو مشهور » [1] .

كذلك توطدت العلاقات بين السلطان ملكشاه والخلافة العباسية عندما تزوج اثنان من الخلفاء وهما المقتدى والمستظهر من بنات ملكشاه .

أما من الناحية العلمية ، فيعتبر عصر ملكشاه عصرا حافلا بالعلم والعلماء ، كما كان السلطان نفسه مشاركا ومشجعا لهذه النهضة العلمية . ومن أهم الأعمال

---

(١) ابن الأثير : الكامل حـ ١٠ ص ٨٠ .

التي جرت في عهده ، تثبيت تاريخ النوروز [٢] (رأس السنة الفارسية) في موعد محدد من كل سنة بحيث يتناسب مع ميعاد جمع الخراج ونضج المحصول .

وقد بذلت محاولات سابقة في هذا السبيل أهمها محاولة الخليفة المتوكل سنة ٢٤٣ هـ التي جعلت موعد النوروز في ٢٧ حزيران (يونيو) من كل سنة : وقد قوبل هذا القرار بالترحاب لأنه أخر جمع الخراج من الناس حتى ينضج المحصول ، ووفر لهم أيضا بهذا التأخير ما يقرب من خمس الخراج المطلوب . وقد مدح البحتري الخليفة المتوكل في هذه المناسبة بالقصيدة التي مطلعها :

لك في المجـد أول وأخـير ومساع صغـيرهـن كبـير

غير أن المتوكل قتل بعد ذلك ولم يتم الأمر على ما أراد ، فلما جاء الخليفة المعتضد (٢٧٩ — ٢٨٩ هـ) بحث الأمر من جديد ، وأجرى بعض التعديلات حتى استقر الرأي على أن يكون موعد النوروز في الحادي عشر من حزيران . وعرف النوروز الجديد في العالم الاسلامي بالنوروز المعتضدي نسبة إلى الخليفة المعتضد ، وجرى العمل بهذا التقويم المعتضدي في جميع الشئون المالية والزراعية بالدواوين المختلفة ، وتلقاه الناس بالسرور والابتهاج .

ولكن على الرغم من أن هذا النوروز المعتضدي قد ثبت في موعد محدد يتناسب مع تاريخ جمع الخراج وموعد الحصاد في كل سنة ، إلا أنه لم يسلم من العيوب.

ولما ولى السلطان جلال الدين أبو الفتح ملكشاه رأى ضرورة اصلاح عيوب هذا الحساب السنوي الفارسي ، فجمع لجنة من علماء المنجمين أي الفلكيين في سنة ٤٦٧ هـ (١٠٧٤ م) لاصلاح هذه العيوب . وكان من بين أعضاء هذه اللجنة الشاعر الفلكي المشهور عمر الخيام صاحب الرباعيات . واستقر رأي اللجنة على تعيين رأس السنة الشمسية (النوروز) في أول نقطة من دخول الشمس

---

(٢) يقال نوروز أو نيروز ، والأولى أصح ، ومعناها اليوم الجديد أي بداية السنة عند الفرس . وجرت العادة أن يحتفل الفرس بعيد الحصاد في أول أيام سنتهم الشمسية وهو يوم النوروز . وجرت العادة كذلك أن يجمع الخراج في يوم النوروز في شهر يونيو أي في بداية الصيف ، وان كانت بعض المناطق الفارسية احتفلت به في شهر مارس أي في بداية الربيع . أما في مصر فقد كان الاحتفال بعيد النوروز في أول يوم من توت وهو بداية السنة القبطية (١١ سبتمبر) ففي هذا اليوم يبلغ فيضان النيل ذروته ولهذا اتخذوه مبدأ لسنتهم . راجع (طه ندا : الأعياد الفارسية في العالم الاسلامي ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية سنة ١٩٦٣) .

برج الحمل بعد أن كان يقع عند توسط الشمس برج الحوت [1] . ولا يزال إلى اليوم في نفس الموعد عند الايرانيين . ويعترف العلماء الأوربيون بأن هذا التقويم الذي توصل إليه العلماء في عهد السلطان ملكشاه يفوق في دقته التقويم الجريجوري . ويسمى هذا التقويم بالتقويم الجلالي نسبة إلى السلطان جلال الدين ملكشاه ، كما سمى يوم النوروز فيه بالنوروز السلطاني نسبة إليه كذلك [2] .

ولقد برز في بلاط السلطان ملكشاه ثلاثة من كبار علماء الفرس ، جمعتهم رابطة الزمالة منذ أيام دراستهم في مدينة طوس (مشهد) ، وهم : الوزير نظام الملك الطوسي ، والشاعر عمر الخيام ، والثائر الاسماعيلي الحسن الصباح .

ولقد كتب الأول — نظام الملك — كتابا بالفارسية بعنوان « سياسة [1] نامه » ، وهو كتاب في الآداب السلطانية على شكل ارشادات ونصائح للحكام السلجوقيين ، وقد أهداه الى السلطان ملكشاه . كذلك تنسب الى هـــذا الوزير نظام الملك المدارس النظامية التي بناها في نيسابور وبغداد وبلخ والموصل وهرات ومرو لمقاومة الثقافة الشيعية . وهو يعتبر بذلك أول من بنى المدارس في الشرق الاسلامي .

أما العالم الثاني وهو عمر الخيام (ت ١١٣٢ م) فقد ساهم في اصلاح التقويم السنوي الفارسي (النوروز) السالف الذكر ، كما أنه كتب عدة مؤلفات علمية مثل كتاب « نوروز نامه » الذي تحدث فيه عن سبب وضع عيد النوروز مبينا المراسم والاحتفالات التي كانت تتبع في هذا العيد أيام الملوك الساسانيين [2] . ولعمر الخيام كتاب المصادرات على اقليدس ، ومشكلات الحساب ، وله في الشعر الرباعيات التي نقلت إلى العربية شعرا ونثرا [3] ، وإلى معظم لغات العالم .

---

(١) ابن الأثير : الكامل حـ ١٠ ص ٩٨ .
(٢) طه ندا : المرجع السابق .

(١) ترجم المستشرق شيفر Schefer كتاب سياسة نامه إلى اللغة الفرنسية .
(٢) نشر كتاب نوروز نامه في طهران مجتبي مينوى (طه ندا : النوروز في الآداب الاسلامية ص١١)
(٣) نقل الرباعيات شعرا وديع البستاني وأحمد الصافي النجفي واحمد رامي ، ونثرا أحمد حامد الصواف . ونقلها إلى التركية عبد الله جودت .

أما الشخصية الثالثة فهي شخصية الثائر الشيعي الاسماعيلي الحسن الصباح (ت ١١٢٤ م) الذي اعتنق تعاليم الاسماعيلية فأقصاه نظام الملك عن البلاط السلجوقي . ومنذ ذلك الوقت اتجه الحسن الصباح إلى المعسكر المضاد فزار الخليفة المستنصر الفاطمي بالقاهرة سنة ١٠٧٢ م ثم عاد إلى ايران وتحصن في قلعة ألموت بجوار بحر قزوين . وهناك دعا للخليفة المستنصر الفاطمي ثم دعا لولده نزار من بعده مخالفا في ذلك الدعوة الفاطمية في القاهرة التي أجمعت على المستعلي بن المستنصر . ولهذا عرفت دعوته بفارس باسم الدعوة الجديدة كما عرف أنصارها بالاسماعيلية النزارية ومنهم فئة الحشيشية أو الحشاشين أو الفداوية .

ويتهم البعض الحسن الصباح بقتل صديقه القديم نظام الملك على يد بعض أعوانه من الباطنية ، بينما يرى البعض الآخر أن السلطان ملكشاه هو الذي دبر مقتل وزيره بعد أن سئم طول حياته واستبداده بالحكم .

وكيفما كان الأمر ، فإن السلطان ملكشاه لم يعش بعد وزيره نظام الملك إلا شهرا واحدا ومات في نفس السنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) .

وبعد وفاة ملكشاه ولى ابنه بركياروق الذي تبدأ في عهده المنازعات والحروب الداخلية مع اخوته وأعمامه مما أدى إلى تفكك الدولة فيما بينهم ، وعجزها عن صد غارات المغيرين أمثال قبائل الغز والقراخيتاي ، كما هزمت جيوشها أمام شاهات خوارزم ، وانتهى الأمر بسقوط هذه الدولة ، دولة السلاجقة العظام ، بوفاة آخر سلاطينها سنجار دون عقب سنة ٥٥٢ هـ (١١٥٧ م) .